بحـــوث

في

تفسير القرآن الكريم

تاريخه - اتجاهاته - مناهجه

بحوث في تفسير القرآن الكريم

تاريخه • اتجاهاته • مناهجه

الدكتور
محمد ابراهيم شريف
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الموفق والمعين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، الذى أمره ربه بالتبليغ والتبيين ، فكان لأمته خير مبلغ ونعم المبين .

وبعد : فهذه بحوث فى تاريخ تفسير القرآن الكريم تكشف عن اتجاهاته الفكرية ومناهجه الفنية ، وتسير معه فى دروبه ومسالكه منذ عصره الأول ، بل من لحظة نزول الوحى على الرسول ﷺ حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وذلك فى إطار دائرة محددة من دوائر الفكر الإسلامى هى دائرة أهل السنة .

وقد ركزت الدراسة على عصور التفسير الأولى (الرسول – الصحابة – التابعين – تابعى التابعين) باعتبارها العصور التى تكونت فيها بذور التفسير الأولى التى ما لبثت أن صارت – فيما بعد – اتجاهات متعددة ، ومناهج متنوعة ، ومذاهب وألوانا متباينة ، استشرفت بحوثنا إلى إلقاء الضوء على بعض منها فى صياغاته النظرية والفنية .

كما قدمنا لهذه الدراسة بما رأينا معرفته ضرورية لولوج تفسير القرآن وتاريخه من أبوابهما الطبيعية ، فتعرضنا لشرح بعض المصطلحات والمفاهيم ، ووضعنا الحدود الفاصلة بين ما يدخل فى التفسير وما لا يدخل فيه من اهتمامات البشرية بالقرآن الكريم ودراساتهم حوله ... وغير ذلك مما يثرى دراستنا ويضفى عليها جدة وعمقا تتطلبهما عظمة القرآن وجلاله .

وأخيرا فقد طرحت الدراسة تصورات جديدة ، وانتهت إلى نتائج غير مألوفة فى كثير مما تعرضت له من قضايا وموضوعات ، وبخاصة تلك التى لم تحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

اهتمام البشرية بالقرآن الكريم وتفسيره :

لقد شرف الله الأمة العربية بخاتم رسله - محمد ﷺ - وأنزل عليه معجزته الخالدة كتابا كريما ختم به الكتب وهيمن به عليها ، وجعله دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ، حيث أنهى إليه كل تشريع ، وأودعه كل حكمة ، وأرجع إليه كل نهضة ، وناط به كل سعادة .

ومنذ نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ إلى اليوم وهو موضع اهتمام بالغ من المسلمين - وغيرهم - تدور من حوله علومهم ، وتنضج فى خدمته بحوثهم ، ومن هنا فقد أتيح للقرآن الكريم من الشروح والتفاسير - مع الحفظ والتلاوة - ما لم يتح لغيره من الآثار الدينية بعامة .

وليس ثمة من شك فى أن العناية والرعاية اللتين حظى بهما القرآن الكريم - ومازال - يرجعان فى المقام الأول إلى أنه النص الدينى الوحيد الموثوق بكل كلمة منه ، فهو كلام الله وكلمته الأخيرة التى بين أيدينا والموحى بها إلى البشرية ، وكل لفظ فيه من عند الله ، فلم يتعرض طوال تاريخه لتغيير أو تحريف أو تبديل ، كما تعرضت له النصوص الدينية الأخرى التى وكل الله حفظها إلى الناس حيث قال عنها وعنهم : ﴿ والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وإن كانت قدسية هذه النصوص مازالت معتبرة عند المؤمنين بها من أصحاب الديانات السابقة ، برغم تسليم هؤلاء واعترافهم بما دخل هذه النصوص من عناصر بشرية فى عبارتها وصياغتها .

أقصى حدود النصفة التى لا تحيد عن الحق [1] ، كما انصرفت هذه العناية وذلك الاهتمام إلى ميادين كثيرة منه من حيث وثوق نصه وتواتره ، وسلامة نظمه وترتيبه ، وصحة رسمه وشكله ، ومبلغ كل ذلك من الصفاء والدقة ، إلى ثراء موضوعاته وتنوعها وتعرضها لسائر ظواهر الطبيعة ، ودخائل النفوس ، وعوالم الغيب وما فوق قدر البشر [2] دون أن يحوى قضية أو مقولة واحدة قابلة لأدنى نقد أو إعادة نظر فيما تطرحه من معطيات .

وإذا كان القرآن الكريم على هذا النحو من الثقة فى نصه – بعامة – والتفرد عن غيره من الكتب السماوية – « فإنه فوق ذلك كان فى نظر المسلمين – بخاصة – المؤمنين به وبرسالة صاحبه حجة هذا الرسول وآيته الكبرى على غير المؤمنين به يقوم فى فم الدنيا شاهدا على رسالته وناطقا بنبوته ودليلا على صدقه وأمانته .

وهو – بالإضافة إلى ذلك – ملاذ الدين الأعلى يستند إليه الإسلام فى عقائده ، وعباداته ، وحكمه وأحكامه ، وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه .

---

(١) يشار هنا بخاصة إلى اتفاق دارسى القرآن من النقاد غير المسلمين – وعلى رأسهم « وليم موير » و« فون هامر » و« كارليل » و« تولستوى » و« جوتيه » – على أن نص القرآن الكريم مطابق للأصل الذى أقره الرسول ﷺ بنصه ورسمه لم يتغير منه حرف واحد ، راجع : القرآن يتحدى ص ١٢٥ ، ويؤكد « موريس بوكاى » على وحيية القرآن متسائلا : « كيف يمكن لإنسان – كان فى بداية أمره أميا – أن يصرح بحقائق ذات طابع علمى لم يكن فى مقدور أىّ إنسان فى ذلك العصر أن يكونها ؟ » انظر : القرآن والعلم ص ١٥٠ .

(٢) إن رحابة الموضوعات القرآنية وعمقها وتنوعها شىء فريد يشده العقل الإنسانى ويوقفه حائرا يتأمل القرآن وهو يتحدث عن ذرّة الوجود المستودعة باطن الصخر أو أعماق البحار حتى النجم الذى يسبح فى فلكه نحو مستقره المعلوم ، ثم وهو يتقصى أبعد الجوانب فى قلب الإنسان ويلمس أدق انفعالات نفسه ، وأخيرا وهو يتجه نحو ماضى الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها المستقر فى ضمير الغيب ، فيرسم مشاهد الحضارات المتتابعة ، ويدعونا إلى تأملها نفيد عظة واعتبارا ، وصدق الله العظيم ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] . وراجع : الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى ص ١٨١ ، طبع القاهرة ١٩٥٧ م .

أما هذه الأنشطة الفكرية واللغوية التى دارت حول النص القرآنى وتطلبتها معرفة أسراره ومعانيه – فقد اصطلح على تسميتها بعد[1] بـ« علوم القرآن »، كما اعتبرت هذه العلوم على أهميتها وكثرتها المقدمة الضرورية الواجب تحصيلها لدى المشتغلين بتفسير القرآن الكريم الطالبين معرفة أفهامه ومعانيه، إنها كما قال بعضهم: المقدمة الصغرى من مقدمتى التفسير، أو هى المفتاح الذى يلج به المفسر باب النص القرآنى، وبغيره تنحرف الأفهام وتتعثر العقول فتخرج عن مرادات الله ومطلوباته وهديه المبين.

وإذ كان النظر فى هذه الدراسة مصروفا – بطبيعة الحال – عن سائر هذه الأنشطة والعلوم، ومركزا على جانب واحد منها فحسب هو جانب التفسير الذى وسمت به هذه الدراسة من حيث نشأته وتطوره، وما دخله من اتجاهات فكرية أو مناهج فنية – فلا مناص لنا قبل هذه الدراسة أن نتلمس شرعية هذا النشاط التفسيرى من خلال النصوص الدينية – قرآنية وغيرها – وفهم العلماء لهذه النصوص الآمرة بهذا النشاط القرآنى.

ولقد رأى العلماء بهذا الشأن والعارفون به أننا مأمورون شرعا بتطلب تفسير القرآن الكريم، والكشف عن معانى كلامه، وتعلم ذلك وتعليمه، وهذا واضح فى قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾

---

(١) اصطلح على هذه التسمية عند عصور التدوين، وإن كان المسمى محصلا من قبل من لدن الرسول ﷺ وصحابته الذين عرفوا عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء بعد وفوق ما عرفوا، ولكن معارفهم لم توضع على عهدهم كفنون مدونة، ولم تجمع فى كتب مؤلفة، حيث لم تكن بهم حاجة إلى التدوين والتأليف، وإنما بقيت محفوظة فى صدورهم كحفظهم للقرآن الكريم، وقد اشتهر عن الإمام الشافعى إجابته للرشيد عن علمه بكتاب الله عز وجل، حيث عدّد له من علوم القرآن الكريم الكثير مما أدهشه هو والحاضرين معه، ودلّ على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن الكريم من قبل أن تُجمع أو تُدوَّن، أما جمع هذا العلم وتدوينه وإظهار مصطلحه فقد كان للمصريين فضل السبق إليه على يد الحوفى (ت ٤٣٠ هـ) فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن »، كما كان لهم فضل استمراره ونهضته فى مؤلفات السخاوى والزركشى والبلقينى وغيرهم حتى الجلال السيوطى فى بداية القرن العاشر الهجرى. وراجع مقدمة الإتقان فى علوم القرآن – السيوطى ص ٣ – ٨ طبع الحلبى ١٩٧٨ م.